



خطبة صلاة الجمعة 10/10/2014 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(أخطاء شائعة (27) - اضطراب الهوية)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيّه وخليله، خيرٌ نبيّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا

عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نَكِثَتْ فِي قَلْبِهِ نَكِثَةً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ، زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأْسُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبة السابعة والعشرون في سلسلة: (أخطاء شائعة).

هدفُ السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً، وشعارها: (أسرتي سكاني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرةً أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الأول، وعنوانها: (اضطراب الهوية)

أبيها الإخوة:

للمسلم هوية تظهر في كل ما يتعلق به بدءاً من سلامه على من حوله، وانتهاءً بأخطر قضية في الوجود توحيد الله تعالى، مروراً بعلاقاته الأسرية وتعاملاته المالية ومرافعاته القضائية، وعندما تغيب شخصية المسلم وهويته من مفاصل حياته فهذا خطأ وخطر مطلوب أن نصححه وأن نتداركه.

ولله در محمد إقبال عندما أنشد:

كـلـل من أهمل ذاتيته	فهو أولى الناس طراً بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته	كل من قلـد عيش الغرباء

وكيف يسعى المسلم لتقليد غيره في الغث والسمين، ولتضييع هويته وهو يتلو القرآن وفيه: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (161) قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الأنعام: 161-163].

كيف يسعى المسلم لتقليد غيره في الغث والسمين ولتضييع هويته وهو يعلنها مدوية في كل صباح ومساءً: (رَضِيتُ بِاللَّهِ تَعَالَى رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا).

من طريف ما جاء في كتب الأدب اعتزاز بنت البادية بعيشة البادية وتفضيلها على رفاه الحاضرة. ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه تزوج امرأة من البادية تدعى ميسون بنت بحدل، وحين أقدمها الى الشام، أسكنها في قصر مشيد منيف، وأخدمها جوارى عدة، وألبسها الحرير والديباج والشفوف، ورغم هذا كانت تحن إلى البادية حنين المرضع لرضيعها، وتشوق إليها بشعر مؤثر، وحدث في يوم من الأيام أن مرَّ بها معاوية، وهي تنشد أبياتاً تقول فيها:

لبيتٌ تحفُّق الأرواح فيه	أحبُّ إليّ من قصر منيف
وكلبٌ ينبع الطُّراق عني	أحبُّ إليّ من قـطِ أليف
ولُبس عباءة وتقـرُّ عيني	أحبُّ إليّ من لبس الشفوف
وأكل كُسيرةٍ في كسر بيتي	أحبُّ إليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فجٍّ	أحبُّ إليّ من نقر الدفوف
خشونة عيشتي في البدو أشهى	إلى نفسي من العيش الطريف

وما أبجاء من وطن شريف

فما أبغي سوى وطني بديلاً

تقول كتب الأدب: أن معاوية رضي الله تعالى عنه لما سمع أبياتها طلقها ليعيدها إلى أهلها وقال لها بعد الطلاق: كنتِ فبنت، فردت عليه قائلة: ما سررنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنّا.

أبيها الإخوة:

إن اعتزاز المرء بهويته وتمسكه بشخصيته دليل على سيادته ورفعته، وتنازل المرء عن شخصيته وذاتيته وهويته أمام كل دخیل دليل على ضعف وعجز. إن الأمم التي تريد أن تبقى هي التي تحافظ على هويتها، فالهوية هي ذات الأمة ووجودها.

أبيها الإخوة:

سُقت هذه المقدمة الطويلة لأتحدث عن خطأ شائع في أسواقنا التجارية يحاول فيه الباعة والمشترون بعلم أو بدون علم أن يقلقلوا هوية العربي المسلم. فتذهب المرأة من نسائها في فترة العيد لشراء ثياب لابنتها فتعجب أن أكثر المعروض في المتاجر بنطالاً ضيقاً يصف ما تحته، وقميصاً ملاصقاً لا يستر شيئاً من بدن لابسه، وكلاهما -البنتال والقميص- لا ينتميان إلى أعرافنا ولا إلى ديننا ولا إلى أذواقنا. فإذا سألت المرأة عن ثوب فضفاض أو عن قميص عريض رماها البائع بكلمات الاستغراب والاستخفاف، وربما هزأ وسخر.

يقول: أبيع ما يصنعه المصممون والخياطون وما يستورده المستوردون. والمصممون والخياطون والمستوردون والباعة عرب مسلمون يصلون مع المصلين ويصومون مع الصائمين، لكنهم بأفعالهم هذه يضيعون هويتنا من حيث يدرون أو لا يدرون. وتذهب أم لتشتري ثياب مدرسة لابنها أو ابنتها فتتفاجأ بأن اللباس الضيق لحق بثوب المدرسة سواء كان لفتى أو فتاة، وربما كان البنطال بسّرج قصير إذا انحنى الطالب أو الطالبة انكشف شيء من ظهره، وتساءل الباعة مرة أخرى فيقولون هذا هو الموجود في أسواق الجملة وتمضي لأسواق الجملة لتسمع الكلام نفسه، وكل الموجودين في هذه الأسواق إخواننا وأبنائنا وآباؤنا، فتضيع الهوية بين الجميع. وإذا ما ذهبنا إلى محلات حلاقة الرجال رأيت عجباً من صور معروضة لأشخاص ليسوا عرباً ولا مسلمين حلقوا رؤوسهم بطرق عجيبة وصبغوا شعورهم بأصباغ غريبة، ويُقنع الحلاق الفتى باختيار واحد

من هذه النماذج ، فیدخل الفتی إلیه عربیاً مسلماً لیخرج عربی الجسم أعجمی الرأس، شرقی الاسم غربی المنظر، وربما حلق الحلاق للفتی حلاقة الفتاة وللفتاة حلاقة الفتی. والحالق والمخلق مسلمان یصلیان مع المصلین ویصومان مع الصائمین، وعندما تسأل أحدهما عن السبب فی هذا المنظر الغریب یقولان: علیه درج الناس وإلیه مال الشباب، وتضطرب الهوية بین هؤلاء وهؤلاء.

أيها الإخوة:

قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138] ، والصبغة هي الهوية، والهوية هي الإسلام، والإسلام يصبغ الإنسان صبغة خاصة في عقيدته وفكره ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه وأعماله.

قال القرطبي في تفسيره: (سُمِّيَ الدينُ صبغةً استعارةً ومجازاً حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب).

ومهما اجتهد المرء فينا أن يُظهر تعاليم دينه في معاملاته وسلوكياته وبيعه وشرائه وأخذه وعطائه فهو الصواب، ومن الخطأ الجسيم أن تكون قلوبنا مع الدين وجوارحنا مع غيره. وأختم الخطبة بثلاثة أحاديث من أحاديث كثيرة تدعونا جميعاً إلى المحافظة على هويتنا الإسلامية سواء في أسواقنا التجارية أو في علاقاتنا الأسرية أو في سلوكياتنا اليومية.

1- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهل المدينة لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان» قالوا: كنا نلعب فيهما بالجاهلية، فقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ» [أخرجه أبو داود بسند صحيح].

2- عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْسٌ عَرَبِيَّةٌ، فَرَأَى رَجُلًا بِيَدِهِ قَوْسٌ فَارِسِيَّةٌ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟ أَلْقَهَا، وَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ وَأَشْبَاهِهَا، وَرِمَاحِ الْقَنَا، فَإِنَّهُمَا يَزِيدُ اللَّهَ لَكُمْ بِهِمَا فِي الدِّينِ، وَيُمْكِّنُ لَكُمْ فِي الْبِلَادِ» [ابن ماجه].

3- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خَالِفُوا المشركين: وَفَرُّوا اللَّحَى، وَأَخْفُوا الشَّوَارِبَ» [البخاري ومسلم].

أيها الإخوة:

تضييع الهوية خطأ وخطر، والصواب المحافظة على هويتنا الإسلامية في كل أمورنا. نسأل الله تعالى أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتى يُعَجِّلَ لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين